## (٤) مرض الزهيمر : Alzheimer

فى الواقع العلمى ، يمكن أن يوصف أى مرض بعبارات ومصطلحات عن السبب والأثر . والأعراض التى يقدمها المريض لطبيبة ، مع ما يسفر عنه فحص الجسم ، تعتبر جميعها النتائج المباشرة المحددة للتغيرات المرضية داخل الخلايا ، والأنسجة ، والأعضاء ، أو للاضطرابات فى العمليات الكيميائية الحيوية . وبمجرد أن تتعين بوضوح ودقة هذه البدائل الأساسية ، يصبح من اليسير التوجيه نحو إبداء الملاحظات العلاجية المرتقبة . وإن الغرض من المتابعة المتدرجة التشخيصية هو العثور على السبب ، واستخدام تأثيراته كمفاتيح لكشف الأسرار .

مثلاً : التصلب الذى يسد الشريان المغذى لجزء من عضلة القلب سوف يسبب ذبحة[١] ، أو موت جزء من عضلة القلب (لعدم وصول الدم النقى إليه)[٢] مع ظهور الدلائل الناتجة عن هاتين الحالتين . والورم الذى ينتج عنه إفراط كبير فى الأنسولين يقلل بشدة مستويات الجلوكوز فى الدم ، فيمنع تغذية أجزاء المخ الرئيسية ويؤدى إلى الغيبوبة . والفيروس الذى يهاجم الخلايا الحركية فى النخاع الشوكى يسبب شلل العضلة التى ترسل إليها تلك الخلايا رسائل . جزء من الأمعاء يلتوى بشدة حول نتوء نسيج داخلى عقب جراحة فتكون النتيجة انسداد بالأمعاء يتسبب عنه انتفاخ ، وقىء ، وجفاف ، وعدم توازن كيميائى فى الدم ، وهذا بدوره يؤدى إلى اضطراب فى نبض القلب . انفجار الزائدة الدودية يملأ التجويف البطنى بالصديد فتكون النتيجة التهاب الغشاء البريتونى (المبطن للتجويف البطنى) فيتسرب القيح إلى مجرى الدم وفيه بكتيريا ويتسبب عنه حمى حادة ، وتعفن الدم وصدمة . وقائمة الأمثلة لا تنتهى ، وهى المادة الأساسية لكتب الطب .

يأتى المريض إلى الطبيب ومعه علامة أو أكثر من الظواهر الدالة : ذبحة ، غيبوبة ، شلل بالرجلين ، قىء متواصل ، أو بطن منتفخ ، أو حمى مصحوبة بألم فى البطن ، وهنا يبدأ العمل الاستكشافى . إن سلسلة الأحداث هى التى قادت إلى ملاحظة بعض الظواهر مع نتائج الفحص الطبى ، وكلها تؤدى بالطبيب إلى استخدام المصطلح الطبى : تقصّى المرض الوظيفى Pathophysiology .

إن هذا المصطلح هو المفتاح إلى معرفة المرض . وبالنسبة للطبيب ، فإن الكلمة لها دلالاتها التى تجمع بين الفلسفة والجمال الفنى أو الشعرى ، ولا عجب فى

---

(١) Angina Pectoris : إحساس شديد بإختناق الصدر مع ألام بالغة القوة . والذبحة الصدرية ليست مرضاً فى ذاتها لكنها مظهر مرض فى القلب .

(٢) Infarction – الجلطة .

ذلك ، فإن جزءا منها من أصل يونانى "Physiologia" له معنى فلسفى وشعرى : أى سـؤال أو بحث فى طبيعة الأشياء "Pathos" فهى بادئة بمعنى : التألم أو المرض . ومنهما معاً ينتج تعبير أدبى لجوهر بحث وتفحص الطبيب وهو الكشف عن طبيعة الألم والمرض .

## القبض على المرض (المتهم) متلبسا

فتصبح مهمة الطبيب تحديد السبب المثير للمرض بتتبع الخيط الممتد إلى أن يعثر على «المتهم» الأساسى فى حالة تلبس : ميكروبية أو هرمونية ، كيمائية أو آلية تلقائية ، جينية أو بيئية ، حميدة أو خبيثة ، فطرية ذاتية أو حديثة مكتسبة . ويتم التحرى والاستقصاء باقتفاء أثر المعلومات الوثيقة والآثار التى تركها الجانى من تدمير واضح المعالم بالجسم . وهكذا يعاد فهم بنية الجريمة وتوضع خطة العلاج التى تجنب المريض آثار استفحال المرض .

## الترياق المنشود لقهر الجانى

وبمعنى آخر ، فإن كل طبيب هو «متقص للمرض الوظيفى أو العضوى» . هو باحث محقق يبغى تحديد المرض باقتفاء أثر الأصل فى مظاهرة وعلاماته . فإذا ما تم ذلك ، أمكن اختيار العلاج الملائم . وسواء كان الهدف استئصال المرض ، بتدميرة بالعقاقير أو بأشعة × ، بإبطال مفعوله بالترياق المضاد ، بتقوية الأعضاء التى تعرضت للهجوم ، بقتل الجراثيم والميكروبات المسببة له ، أو ببساطة «إيقافة عن العمل» أى كبح نشاطه حتى تتمكن أجهزة الجسم ذاته الدفاعية من هزيمته وقهره، فإن خطة أو برنامج العمل فى كل حالة يجب أن تكون منظمة جيداً ضد كل مرض إن أراد المريض أن يصمد للمعركة إذا ما لاحت أية فرصة للغلبة والفوز . وعندما يدخل طبيب فى معركة للنضال ضد هلاك مريضة ، فإن معارفة ومعلوماته تتحرى عن السبب والأثر لتكون هى المستودع الحربى الذى يوجهه نحو الاختيار الصحيح لأسلحته .

إن محصلة القرن الماضى فى مجال بحوث الطب الحيوى هى أن تقصى المرض الوظيفى للغالبية العظمى من الأمراض أصبح معروفاً جيداً ، أو على الأقل معروف جيداً بدرجة كافية لإتاحة العلاج المناسب الفعال . وكن يبقى هناك بعض الأمراض تبدو العلاقة فيها بين السبب والأثر أقل وضوحاً وتوصيفاً مما نرجو ونأمل ، والقليل من تلك الأمراض هو من بين الكوارث الكبرى فى عصرنا الحالى . والمرض الذى يطلق عليه اليوم : «نمط الزهيمر» خبَل أو عته الشيخوخة»[1] ، لا يندرج فقط تحت قائمة هذه الفئة من الأمراض والكوارث ، لكنه يحمل فوق ذلك إغاظة شديدة حيث أن أول أسبابه ظل يراوغ العلماء منذ أن لفتت مشكلته أنظار الأطباء لأول مرة عام ١٩٠٧ .

(1) "Snile dementia of the Alzheimer type"

أساس التشخيص لمرض «الزهيمر» هو أنه : تحلل وفقدان عدد كبير جداً من الخلايا العصبية فى تلك الأجزاء من قشرة المخ المتعلقة بما يسمى الوظائف العليا مثل الذاكرة ، والتعلم ، وإصدار الأحكام والتقديرات ، ويتناسب مقدار الخلل أو الخبل الذى ينتاب المريض فى طبيعته وقسوته مع موقع الخلايا المصابة من المخ وعددها ، والنقص الواضح فى عدد الخلايا العصبية هو فى حد ذاته تفسير كاف لفقدان الذاكرة وأنواع العجز الأخرى بالمخ . لكن هناك عامل آخر يبد أنه يلعب دوراً مشابها : انخفاض ملحوظ فى مادة «الأستيل كولين وهى من بين الموصلات العصبية التى توجد فى الجهاز الباراسمبثاوى .

تلك هى العناصر الأساسية المعروفة عن هذا المرض ، لكنها قليلة جداً وبعيدة كل البعد عن توفير صلة مباشرة بين المكتشفيات الكيميائية والبيولوجية من ناحية ، وبين الظواهر أو الدلائل المحددة التى يتعرض لها المريض فى أية لحضة من ناحية أخرى . إن كثير من التفاصيل عن تَقَصى وظيفة هذا المرض لازالت تخدع وتراوغ معظم الجهود المبذولة المعنية به فى مجال علوم الطب فلا تنتهى إلى نتائج ثابتة أو محققة . ولا تعرف أقل القليل مما قد يعين على العلاج بقدر ما نجهل أكثر الكثير عن مسببات المرض .. لكن من الممكن إلقاء نظرة على تطور هذا المرض بالتدريج تاريخيا من المعلومات المتاحة لعلها تكشف بعض الغموض المصاحب لمظاهر الخلل فى وظائف المخ ، ومن الممكن أيضاً التأريخ للمأساة المروعة التى تحل بأسر الضحايا ، ومن الممكن كذلك الحديث عما يحدث للشخص المبتلى وكيف أنه يساق إلى الموت «كل شئ جاء إلى الرأس قبل عشرة أيام بالضبط من عيد زواجنا الخمسين» هكذا بدأت «جانيت ويتنج» تستعيد ذكرياتها عن ست سنوات من العذاب قضاها زوجها فى ذبول الإحتضار وهو فى المرحلة الأخيرة من مرض الزهيمر . كنت أعرف جانيت وزوجها «فيل» منذ أيام طفولتى . كانا صغيرين ولهما جاذبية شديدة منذ أن زارتهما أسرتى لأول مرة فى مسكنهما فى أواخر الثلاثينات . كان هو فى سن الثانية والعشرين ، وهى فى سن العشرين وبالمقارنة إلى آبائى المهاجرين الأكبر سنا ، بدت أسرة «ويتنج» وكأنهما زوجان من نجوم السينما ، شباباً ومرحاً واستمتاعاً ببيت حديث المفروشات .

لم يساورنى الشك فى حقيقة المشاعر المتوهجة التى يحملها بوضوح كل منهما نحو الآخر . لكن ما كنت أشك فيه هو ترجيح أن اثنين يتقاسمان الحياة بهذا القدر الكبير من البهجة والمتعة يمكن أن يكونا حقا زوجين . كنت على يقين من أنهما يحاولان تحقيق ذلك ، لأننى كنت أعرف من ملاحظتى الذاتية أن الأشخاص المتزوجين لا يكون سلوكهم فيما بينهم على هذا النحو المتألق . كان كل منهم مجنوناً بالآخر .

ظـل فى هذا الزواج شئ ما متبادل هو مزيج من الاحترام والشغف والرعاية والرقة ، وهذا ما أدركت قيمته المتزايدة عندما كبرت ونضجت بدرجة تكفى لمعرفة كيف يكون ذلك بين رجل وإمرأة . وحتى تعبيرات العاطفة الجياشة المكشوفة التلقائية لم تختف . ومع مرور الأعوام ، صنع «فيل» لنفسه مركزاً مرموقاً فى تجارة العقارات ، وأصبحت الشقة التى تسكنها الأسرة فى «وستبورت» بولاية كونكتكت مقراً جميلاً ، عامرة بثلاثة أبناء . فلما كبر الأولاد ، انتقلت چانيت مع فيل للإقامة فى بيت فاخر بمدينة سترا تفورد . وعندما توقف فيل فى سن الرابعة والستين عن العمل لكل الوقت كان كل واحد من أبنائه قد حقق نجاحا مرموقاً فى مجالة وبأسلوبه ، وأصبح المال وفيراً ، والمستقبل على ما يبدو آمنا .

بعد عشرات السنين من عدم رؤية أسرة وينتج بين سنوات عمرى العشرين والأربعين ، تلاقينا من جديد عام ١٩٧٨ عندما أصبح مقر إقامتهما الفاخر قريباً من بيتى غير بعيد من «نيوهافن» . إن قضاء أمسية مع هذين الزوجين العظيمين قلباً وعاطفة هو فى حد ذاته متعة وإعجاب باتزان ترابطهما وبالاحترام الكامل الرقيق المهذب الذى يبدو واضحاً حتى فى أبسط تعامل بينهما . وفى النهاية ، عندما تقاعد فيل تماماً ، وانتقل هو وچانيت إلى «شاطئ دلراى» بولادية فلوريد ، أحسست أنا وزوجتى إن صديقين عزيزين غاليا القيمة قد انتزعا منا وأصبحا نائيين عنا . ما كنا نجهله هو أن أشياء طفيفة لكنها غريبة بدأت تحدث .

وحتى قبل الرحيل ، كان فيل – ذو العقل الحاد المتقد دائما وفى كل لحظة – قد توقف عن قراءة الكتب – لم تلحظ چانيت ذلك إلا عندما استعادت بذاكرتها الأحداث . وأيضاً فقط مع استعادة الأحداث ، تذكرت بعد سنوات أنها أدركت لماذا كان يصر على أنها يجب أن ترتب برنامج عملها اليومى بحيث لا تتركه أبداً بمفرده وعندما كانت تعتزم قضاء بعض وقت المساء فى المدينة ، كان يصاب بالغم ويدمدم قائلاً «أنا لم أتقاعد عن العمل لكى أبقى وحيداً » . فى تلك الأيام الباكرة ، كانت حالات الغضب المتفجرة نادرة ، ثم أصبحت مألوفة متكررة ثم تحولت إلى نوبات قاذفة ناسفة فى تلك السنوات القلائل التى قضتها الأسرة فى ستراتفورد ، وتزايدت . بدا أن فيل كان يجد دائماً الأعذار لإنتقاد إبنته «نانسى» فكانت زياراتها إلى بيت أبيها تنتهى دائماً بالدموع قبل أن تلحق بالقطار الذى يحملها إلى شقتها فى مدينة نيويورك . وقبل انتقال الأسرة – فيل وزوجته – إلى فلوريدا ، حدثت سلسلة من الوقائع الغامضة تدل على اضطراب متصاعد ، فكان رد فعل فيل إزاءها هو الاستنكار الرافض مع الغضب الحانق وكأنما يوجد شخص آخر غيره مسئول دائما عن الخطأ . مثلاً : أكثـر من مرة كان يذهب إلى المحل الخطأ (غير المقصود أو المعتاد) لقص شعره ، ثم يعنف الحلاق البرئ لأنه تعمد إهمال الموعد الذى حدده – فيل – من

قبل مع شخص آخر . وفى إحدى المرات ، هدد بلطم سائق سيارة داخل محطة بنزين لمجرد أن هذا السائق جاء يبحث عن خرطوم بنزين سقط بالقرب منه . الغريب أن هذا يحدث من قيل الذى لم يرفع يده مطلقاً من قبل مهما كان غضبة .

وأخيراً ، ظهرت أول إشارة كبرى تدل على أن هذه العيوب والاخفاقات ليست فقط مجرد حالات خلل شخصية تزداد سوءا وتصدر عن عجوز ذى مكانه ومسئولية لا يجد الراحة ولا التكامل فى فترة تقاعده . إن الأمر أخطر من ذلك . ذات مساء ، دعت چانيت إلى العشاء زوجين لم ترهما – هى وقيل – منذ عدة سنوات : «روث» و« هنرى وارنر» كان قيل – عادة – مضيافاً ودوداً لطيفاً آنيساً ، فخورا بإعداد زوجته للمائدة ، وبخبرته ومعرفته الواسعة بأنواع الشراب . وقد تعلم منذ أن كان شاباً بديناً بعض الشىء أن ينتقى ثيابه الأنيقة جيداً بحيث يتناسق بطنه الممتلئ مع وجهة المستدير المبتسم فيبدو فى هيئة صاحب النعمة البهيج المرح ، وكان هذا ينعكس على دخيله نفسه فيبدو مهذبا أنيقاً جميلاً موفور السعادة والبهاء . كان رجلاً بسيطاً سمحاً إلفا مألوفا ، يعرف حيثما وجد كيف يوسع المجال المحيط به ويغمر أجواءه بالمشاعر المريحة الطيبة النابعة من طيبة القلب . وفى بيته أو فى أى مكان آخر – فالأمر سواء – كان قيل يشبه صاحب الفندق الكبير القلب الذى يجعل همه الأول سعادة وهناء كل قادم إليه أو محيط به .

هكذا كان الحال فى عشاء تلك الليلة . كان طعام چانيت لذيذا ، والشراب الذى اختاره (قيل) جيداً منعشاً يدل على حسن انتقاء ، وحول المائدة ، دار الحديث شجياً شيقاً ، فى جو عائلى ممتع ، على ذات النمط الذى يطبع بيت (وينتنج) ويغمره بالهناء وقال آل «وارنر» إن أمسياتهم الطيبة فى دفء هذا الشعور النبيل الفياض ترجع بالذكريات الحلوة – مع آل وينتنج – إلى سنوات بعيدة ماضية .

فى الصباح التالى – لم يتذكر قيل شيئا عن تلك الليلة لم يكترث لأى شىء خاصة لرؤية الزوجين وارنر ، وعبثاً – رغم الاسهاب فى الشرح له وبالتفصيل – لم يقتنع بأنهما كانا فى زيارته بالأمس . قالت چانيت : «وهذا ما أفزعنى » ، وهى التى كان ذهنها حتى تلك اللحظة يبحث عن تبريرات منطقية للتغيرات الواضحة التى طرأت مؤخراً على سلوك زوجها قيل . ورغم ذلك ، وحتى مع غداه منعطف اللاعودة ، حاولت أن تفسر لنفسها أقرب الأحداث المتعلقة التى وقعت أخيراً ولاحظتها عن قرب : «كنت أقول لنفسى : حسنا ، أنا أيضاً أنسى بعض الأشياء ، وربما يتحدث هو عنها فيما بعد» . ثم تملكها اليأس وهى تنظر بعيداً من خلال الأفكار الملتهبة المرعبة وهى تتصاعد وتتفاقم كلما أدركت أنها فى الغالب تقنع نفسها بعدم جدوى الفترة الأخيرة من حياة زوجها .

بعد مرور أسابيع قلائل ، اكتنف البناء الدفاعى الهش عند چانيت دليل قاطع برز واضحاً تماما فى مسار خط رؤيتها ، وظل مستعصيا على الزوال أو حتى الانزواء رغم ما تبذله من جهود مضنية فى التبرئة والدفاع . فعند عودتها عشاء إلى البيت بعد قضاء بضع ساعات بالخارج ، وجدت نفسها فى مواجهة ڤيل ثائراً غاضباً متهما إياها بالذهاب لزيارة عشيقها . والذى فاق قسوة الاتهام فى حد ذاته ، هو شخصية «العاشق» المشهور : «والتر» ابن عم ڤيل ، الذى مات منذ عدة سنوات . تقول چانيت : «حتى ذلك الوقت ، لم أكن أعرف ماذا يكون مرض الزهيمر . عرفت فقط أننى خائفة مذعورة إن شيئاً مروعاً يحدث لڤيل ، لا أستطيع تجاهله ، أو أجد له حتى الآن تفسيراً .

«ومع ذلك ، فإن اتخاذ خطوة إيجابية ربما كانت فى نهاية المطاف تؤكد مالا يمكن دفعة . ظلت چانيت مترددة فى البحث عن فحص طبى . ربما كانت تحتفظ بالأمل فى أن ڤيل ببساطة يمر بفترة انفعال عاطفى عابرة ، أو أن هذه النوبات من السلوك غير اللائق أو المهذب لن تتطور إلى الأسوأ ، بل وربما تتلاشئ ويبرأ منها مع مرور الزمن . ومع ذلك ، لم تكن الأحداث وجيزة أو عابرة ، وإنما غير محفوظة فى الذاكرة . كان يبدو أن ڤيل غير واع بما قاله أو فعله . إن العودة بالذاكرة – وحتى الآن – لا تعين چانيت على استرجاع الأكاذيب الصغيرة العديدة التى كانت من المحتم أن تخدع بها نفسها لكى تهدئ من القلق المتزايد الذى كان يصحبها على الدوام ، ولكن تؤخر سماع الإعلان الرسمى بإنه : لا أمل .

وفى النهاية ، أصبح مستحيلاً الاستمرار فى أن تبعد أفكارها عن التسليم بحقيقة أن مخ ڤيل يتفكك . وكثيراً ما تزايد قيامة من النوم فى منتصف الليل ، صارخاً فى چانيت أن تغادر فراشها قائلاً : «ماذا تفعلين هنا ؟ «منذ متى والأخت تنام مع أخيها فى فراش واحد ؟ » . وفى كل مرة ، كانت تفعل فى مراره وصبر ما يأمرها به ، فتتركة غارقاً فى غضبه وتستلقى بعيداً على أريكة فى غرفة المعيشة ساهرة حتى الصباح . بينما يسرع هو بالنوم الهادئ ، فإذا استيقظ فى باكورة اليوم التالى لم يتذكر غضبه الثائر .

ثم وقع ما كانت چانيت تخشاه ولا يستطاع تأجيله ... أكثر من ذلك . ذات يوم ، وبعد نحو عامين من الذى حدث مع أسرة وارنر ، استخدمت چانيت حجة لا تذكرها الآن لإقناع زوجها ... وهى فى الواقع تقنع بها نفسها للذهاب إلى طبيب الأسرة . بعد الإنصات بعناية إلى تاريخ الوقائع ثم الفحص الطبى ، خرج الطبيب من غرفة الكشف وهو يلفظ باسم مرض ڤيل . ومنذ تلك اللحظة أصبحت چانيت متألفة على نحو ما مع الصفات المميزة لمرض «الزهيمر» إلا أن توقعها المسبق للتشخيص لم

يخفف من وطأة الصدمة أو الإحساس بقرب النهاية المحتومة عندما سمعت كلمات الطبيب قررت هى والطبيب ألا يخبرا ڤيل . ولو أنهما أخبراه فإن ذلك لم يكن يغير شيئاً . فقد أصبح بالفعل بعيداً عن إدراك أى شيء سوى تفهم وقتى عابر لمضمون مثل هذا التشخيص ، ولن يحتفظ فى ذهنه بأية محاولة لوصفه . فى خلال دقائق معدودات ، لو أنه استمع إليهم ، فإنه بالتأكيد لن يعير الأمر أى اهتمام وإن كان متعلقاً بحالته العقلية ، وكأنهم لم يخبروه بأى شيء .

بعد مرور بضعة شهور ، عزمت جانيت على أن تخبره وعندما تزايدت نوبات الأفعال غير المنطقية أو المعقولة وتقاربت الفترات الزمنية التى تتدهور فيها ذاكرته ، كانت جانيت أحياناً تفقد القدرة على الصبر والتحمل ، ودائما كانت تشعر بدفعة لحظية من الخجل حين تعامل هذا الرجل الطيب بغضب ثائر طائش ، أو حين تصدر منها كلمة حادة نابية . ذات مرة ، بعد جدال مثير قالت له : « ألا ترى ماذا أصابك ؟ ألا تدرى أنك مصاب بمرض الزهيمر ؟ »قالت جانيت وهى تصف لى حالة الغضب المثير : «لقد شعرت بطيشى وشناعة ما قلت فى نفس اللحظة التى نطقت فيها اسم المرض » . لكن ندمها لم يكن ذا ضرورة . وهذا مالاحظته هى من الجو العام : إن ڤيل لم يعد مدركاً لحالته القاسية المروعة إذ إنه لم يتغير عما كان عليه قبل أن تنطق صارخة بالكلمة . فعلى قدر إدراكه ووعيه ، فإنه لم يحدث شيء يسيء إليه ، بل أنه لم يعد يتذكر حالات النسيان المتكررة التى تنتابه هو . ويظل ڤيل ويتننج العجوز الطيب لم يتغير شكلاً فى نظر كل من أتيحت له فرصة معرفته ولو كانت عابرة ، وهذا بالتحديد ما كان يظنه هو فى نفسه عن نفسه .

فعلت جانيت تقريباً كل ما يفعله كل إنسان فى حالتها المؤلمة . قررت أن تتولى بنفسها رعاية ڤيل إلى آخر ما تستطيع ، وبدأت تبحث عن كتب تساعدها على فهم حالة المخ عند أولئك المصابين بمرض الزهيمر والبعض منها جيد ، وأفضلها جميعاً بجدارة كتاب بعنوان «يوم الـ ٣٦ ساعة» (The 36 - Hour Day) وفيه وجدت بيانا مفصلاً يؤكد ما قاله لها الطبيب منذ أيام مضت مثل : «لئن كان هذا المرض مثالياً فى البطء ، إلا أنه يتطور بلا هوادة أو رحمة » ، وأيضاً : «إن مرض الزهيمر يفضى عادة إلى الموت فى خلال سبع إلى عشر سنوات ، لكنه قد يتطور بسرعة أكبر (بين ثلاث وأربع سنوات) أو ببطء أكبر (فى نحو خمس عشر سنة) » . ولما كانت متعجبة من أنها تشهد – فى ظنها – أمراً عادياً من هذيان وتدمير مرحلة الشيخوخة ، فقد أعترضتها وهى تطالع الكتاب هذه الجملة المبهمة «إن الخلل العقلى ليس هو النتيجة الطبيعية للشيخوخة» .

وهكذا ، سرعان ما أدركت جانيت أنه مرض حقيقى ، وأنه لابد لها من

مواجهته ، ولو أنه يحمل معه حتماً بلا شفقة أو لين التصدع فالموت . من هذا الكتاب – مع الكتب الأخرى – تعلمت چانيت شيئاً عن التغيرات الجسمية والشعورية التى يمكن أن تتوقعها من ڤيل ، كما أنها تلقت من القراءة إشارات هامة عابرة توجهها ، ليس فقط إلى الاهتمام به ورعايته ، بل أيضاً إلى رعاية نفسها طوال السنوات القادمة ، وهى بالتأكيد ضاغطة معذبة . ولكن فى النهاية عثرت على هذه الجملة : «إنها مجرد كلمات ، خالية فى واقع الأمر من التأثير النافذ . إن ما فى داخل قلبك هو وحده الذى يعينك على فعل ذلك » . وأيا كان مدى ومقدار مطالعاتها ، وأيا كانت كيفية تهيئة وإعداد نفسها لاستقبال تلك التوقعات ، فإن كتاب يوم الـ ٣٦ ساعة صاغها واضحة مباشرة : «أحيانا قد يعنفك أو ينتقدك بقسوة أولئك المصابون بأمراض الاختلال العقلى ، وقد يضربونك ويسيئون إلى من وما حولهم » ، إلا أنها لم تتوقع مطلقاً تلك السلسلة من الأحداث التى نزعت الأمور من يديها فى أمسية من شهر مارس عام ١٩٨٧ ، بعد عام من الاستغراق الكامل فى الرعاية الخالصة . كانت تلك الليلة «قبل عشرة أيام بالتحديد من ذكرى عيد زواجنا الخمسين» عندما «طفح الكيل»[1] هذا ما وصفته لى بعد خمس سنوات من وقوعه .

«لم يعد يعرف من أكون . ظن أنى أقتحمت البيت وسرقت متعلقات چانيت . ثم بدأ يدفعنى حول المكان ويلقى نحوى بمختلف الأشياء . وقد هشم بعض تحفى الفنية الثمينة وهو لا يدرى ماذا تكون . ثم قال أنه سوف يتصل بنانسى (الأبنة) ويخبرها بما يجرى فى البيت . وبالفعل طلبها تليفونياً ، فأدركت هى على الفور ما يحدث . فقالت له : «أعطنى فوراً تلك المرأة لأكلمها» ، لذا دفع التليفون نحوى قائلاً » خذى ! ابنتى ستكلمك ، ستخبرك أن تنقشعى وتخرجى » ! وعندما أمسكت بسماعة التليفون إذا بنانسى تقول فزعة مستعطفة : «أمى ! اتركى البيت وأخرجى فوراً . سأطلب الشرطة» . وما أن وضعت السماعة ، وحتى جذب ڤيل التليفون بعنف وطلب أيضاً الإدارة المحلية للحى .

من السذاجة أو الحماقة ، أننى بقيت فى البيت ولم أخرج فأخذ يقذفنى بكل ما حوله لذا لم أجد مفراً من استدعاء الشرطة أيضاً . وتصور : ثلاث سيارات للشرطة تظهر معاً وتقترب نحونا ، فأحسست بالارتباك ! ودخل رجال الشرطة ، فحاولت أن أخبرهم بما يجرى ، إلا أن ڤيل قاطعنى قائلاً : «إنها ليست زوجتى . تعالوا معى لأريكم صورة لزوجتى» . ثم جذب واحد من رجال الشرطة ومضى به إلى حجرة

(١) وكما يقول العرب أيضاً فى مثل آخر : «بلغ السيل الزبى» – والزبية هى الرابية أو الأرض العالية التى لا يصل إليها الماء – المترجم .

النوم ليريه صورة زفافنا فكان طبيعياً أن يبادرة رجل الشرطة بقوله مشيراً إلى الصورة : «هذه العروس تشبه زوجتك الواقفة هناك» ثم أشار نحوى ! لكن ڤيل أصر على القول صارخاً : «**إنها ليست زوجتى**» !

فى غضون ذلك ، أقبلت جارتنا على صوت الجلبة ، فعرفها ڤيل . فلما رأت ما يحدث ، خاطبته بكل وداعة ورقة قائلة : «ڤيل ، أنت تعرف أننى أحبك وأننى لم أكذب عليك أبداً . تلك المرأة هى چانيت ، التفت نحوها وانظر ! » . ففعل تماماً بما أمر به . أدار وجهة نحوى ونظر إلى وكأنه يرانى لأول مرة . ثم قال : «چانيت .. أحمد الله أنك هنا ! جاء إلى هنا شخص يريد أن يسرق ملابسك » ! .. هذا بالضبط ما حدث » .

راوض أحد رجال الشرطة ڤيل حتى اصطحبه إلى سيارته فقال ڤيل : «سوف يظن الناس أنك ألقيت القبض على «وحاول التملص من يد الشرطى الذى رد عليه فى هدوء : «لا أبداً ! إنهم سيظنون أننا نرافق صديقاً فى نزهة بالسيارة» . فبدا أن ڤيل شعر بالارتياح لهذا التفسير الساذج . إنه فى الحقيقة كان فى طريقه إلى مستشفى قريب يمكثت فيه إلى حين تدبير ممرضة مقيمة بالبيت .

انتقلت نانسى للإقامة مع أمها ، فكانا يزوران المستشفى كل يوم . فى البداية، أدهشتهما ارتياح ڤيل الشديد للعمل الروتينى الذى يجرى فى جناحه بالمستشفى ، لكن سرعان ما ظهر أنه فى الحقيقة لا يدرى أين هو . تقول چانيت : «لم يتورع أن يقدمنا إلى مكتب الاستقبال المشرف على الجناح ويخبرنا أن هؤلاء سكرتيراته وإن المستشفى فندق يتولى هو إدارته » . كان عادة يعرف چانيت ، أما الابنة الشابة ، فكان لابد فى كل مرة من اخباره أنها ابنته . وفى بعض الأحيان ، كان يظن أن چانيت عشيقته ، ثم أنتهى إلى أنه لم يعد أبداً يعرف من تكون .

فى خلال أسبوع ، تم العثور على ممرضة جيدة مقيمة بالبيت . فأنتقل ڤيل إلى رعايتها . وبعد أيام قلائل ، إحتفلت چانيت بعيد زواجهما الخمسين إلى جوار رجل يدرى حينا سبب وجودها معه وأحيانا لا يدرى . أما عن حقيقة حالة عقله المختل ، وعن حجم المأساة التى حلت بغتة بالأسرة ، فهو لا يدرى مطلقاً ، إنه نسيان تام .

طوال عامين ونصف بعد ذلك قضيت چانيت كل يوم تقريباً مع ڤيل ، فيما عدا فترات قصيرة كانت ترجئها من أجل إرضاء أبنائها . فقط كانوا يدركون تصاعد إرهاقها وتعبها المضنى ، ويعلمون متى يجب أن تتوقف محنتها . حتى لحظات غيظها واستيائها لم تغب عن انتباههم . لقد كانوا يفهمون كلا الأمرين معاً ، جيداً ، فيلتمسون لهذا العذر عن طيب خاطر أكثر مما تعذر هى نفسها : فمهما قدمت من

عمل أو خدمة أو مواساة بإخلاص وولاء ومودة ، فإن حبيبها وأصدق أصدقائها ينحدر نحو هاوية سحيقة القرار .

أصبحت چانيت متطوعة للخدمة فى قسم العلاج الجسدى . وفى بعض الفترات القصيرة تشارك فى أنشطة المساعدة والخدمات التى تؤديها مجموعة من المتطوعين إلى أسر مرضى الزهيمر لكن مجموعات المساعدة تستطيع أن تتحمل فقط جزءاً يسيراً من الأثقال التى تتراكم على كاهل شخص واحد . فى خلال فترة وجيزة عرفت چانيت أن كل ضحية من ضحايا الخلل العقلى يبتلى أولئك الذين يحبونه بما يتفرد به من شكل العذاب والمعاناة والآلم ، ولذا فإن كل حالة تتطلب شكلاً فريداً من المؤازرة والعون يلائم تماماً ما يصاب به كل شخص بالتحديد . ثم تبين الأبناء استحالة أن يكونوا شهوداً على تدمير أبيهم المحبوب ولعله من الخير أن تمضى الأمور على هذا النحو . أرادوا التخفيف عن روح أمهم المعذبة ، وقد ارتأوا أن تظل متخمة بالدعم العاطفى لكى تتحمل أداء الواجبات التى يعلمون أنها ألزمت نفسها بها .

استجمع «جوى» – الإبن الأصغر – كل قواه كيفما كانت مناسبة لكى يزور والدة مرتين اثنتين فى فترة تدهوره البعيد المدى . وقد سببت له هاتين الزيارتين غما لا يطاق ، ولم يستفد منها الأب شيئاً على الإطلاق لأنه لم يعرفه ولم يفطن إلى وجودة . أما المساعدة التى تلقتها الأم – وكانت تلك هى المساعدة الحقيقية المطلوبة أكثر من غيرها – فهى تتمثل فى صدق المؤازرة الخالصة التى جاءت ، ليس من مجموعات العون ولا من الكتب ، وإنما من التحمل والمساندة الأمينة من جانب الأسرة ومن تلك المجموعة القليلة من الأصدقاء الذين ينبع إخلاصهم ووفاؤهم من صفاء الحب .

لقد قيل : «إن ما فى قلبك هو ما مكنك من فعل ذلك » . وإن ما كان فى قلب چانيت هو أن تفعل لـ «ڤيل» دون سواها ما لا تستطيع أن تفعله الممرضة ، ولا الطبيب ، ولا الأخصائية الاجتماعية . وسواء كان هو يعرفها أم لا ، وكثيراً كان لا يعرف ، فإن شيئاً ما فى داخله ربما لا علاج له كان مصراً على استبقاء الظلمة . وبعيداً عن التذكر أو الفهم ، فإنها – چانيت – كانت الطمأنينة والأمن ، الحقيقة واليقين ، البشارة والنذير فى وسط أو بيئة على العكس من ذلك عنده : لا إنضباط فيها ولا معنى لها . قالت «عندما كان يرانى قادمة ، ربما لوح بإشارة من يده ، لكنه لم يكن يعرف من أكون . كان يدرك فقط أننى شخص ما جاء لزيارته ، وللجلوس معه» .

فى البداية ، كانت صدمة مشاهدة ڤيل فى حالته الثابتة التلف مفزعة تتجدد كل يوم . وكان فى استطاعة چانيت أن تحافظ – بطريقة أو بأخرى – على اتزانها

وضبط مشاعرها عندما تكون كعادتها معه . ومع ذلك ، كان الزمام يفلت منها أحياناً : «فى العام الاول ونحن بالبيت ، كنت أشعر فى بعض الأوقات اننى على وشك الأنهيار والتحطم . فكان لابد أن يأخذونى إلى غرفة أخرى ويتكلمون معى ثم يتكلمون ويتكلمون ، إلى أن أحس أننى تحسنت بعض الشيء لمواصلة النضال . فإذا ما خلوت إلى نفسى فى الليل أنتابتنى حالات هيستيريا (تشنج وهوس) » . وبالتدريج أصبحت أكثر تعوداً ومرونة إزاء حالة ڤيل المتتابعة السوء ، إلا أنها أدركت كم يكو الأمر شاق مزعجاً عند أولئك الذين يتولون رعايته . كما أنها أيضاً أرادت صيانته . أرادته أن يظل فى الذاكرة دائماً مثلما كان ، رجلاً متألقاً بالعزيمة عود نفسه ليس فقط على العزة والكرامة ، بل أيضاً على منهج دقيق فى الحياة تفرد به : «قررت ألا أسمح لأصدقائنا بزيارة البيت . فما كنت أرضى لهم أن يرونه على تلك الحال» .

فى البيت ، كان تغير سلوك ڤيل تماماً مثل ما ورد فى الكتب : «بطيئاً ، ولكنه يتطور بلا رحمة » . فى البدء ، احتفظ بقدر من طبيعته الاجتماعية الودودة الطيبة ، على اعتبار أنه فيما يبدو كان يعتقد أنه مضيفاً لشرذمة من الناس المعذبين فى الأرض فهو مسئول عن إسعادهم . فكان يرتدى ثيابه كاملة ، ويذهب متنقلاً من مريض إلى مريض سائلاً مستفسراً عن كل واحد منهم فى أريحية وحياء : «وكيف أنت اليوم ؟ أتمنى أن تشعر بتحسن» . وأحياناً ، إذا كانت چانيت أو الممرضات فى مشغلة لفترة وجيزة بعيداً عنه ، قد يدفع رجلاً قعيداً . أو أمرأة – على كرسى متحرك (بعجلات) فيمضى به مباشرة إلى خارج المدخل الأمامى للمستشفى ذهاباً إلى جولة للنزهة . وعندئذ يلقى القبض عليه فى أحد الشوارع القريبة ، مبتهجاً بدحرجة قعيدة المستسلم ، غير عابئ بصخب حركة المرور ولا بزحام المشاة .

خلال المراحل المتوسطة من مرضة ، ظهر على ڤيل عدم ملاءمة واضحة بين الأفكار التى حاول فيما يبدو أن يعبر عنها ، وبين الكلمات الصادرة عنه بالفعل . وبالرغم من أن هذا الأمر قد يحدث أحياناً لضحايا النقطة (شلل الدماغ أو المخ) ، إلا أنهم عادة يكونون على وعى من عدم قدرتهم على إخراج الكلمات الملائمة الصحيحة . أما ڤيل فلم يكن لديه أدنى فكرة عن عجزة . لقد تذكرت چانيت مناسبة معينة ، عندما كانا يسيران معاً ، إذ توقف فجأة ثم صاح فيها : «إن القطارات تجرى ببطء ، إفعلى شيئاً » فلما أجابت بأنها لا تعرف أين هى القطارات ، زمجر فى غضب : «ماذا جرى لعينيك ، ألا تبصرين ؟ » ثم أشار إلى حذائه المنسدل الرباط ، فإدركت على الفور : «كان يريد بالضبط إحكام الرباط لكنه عبر عن ذلك بهذا الشكل . لقد كان يعرف ما يريد أن يقوله إلا أنه لم يستخرج الكلمات المضبوطة ، بل ولم يدرك ذلك » .

بعد عودته إلى البيت بفترة ، بدأ ڤيل يزداد وزناً لكنه عندما توقف عن تناول الطعام – فى الواقع نسى كيف يمضغ – كان لزاماً على چانيت أن تضع أصابعها فى فمة لاستخراج فتات الطعام مخافة أن يختنق بسببه . فى هذا الوقت . لم يعد يتذكر اسمه . وبالرغم من استعادته القدرة على المضغ ، إلا أنه لم يعرف مطلقاً من يكون وقبيل توقفه الكامل عن الكلام ، كان بين الحين والحين ينظر برهة إلى چانيت ، لا تعدو لحظات قصيرة ، نظرة فيها الوداعة والرقة القديمة ، مستخدماً بعض الكلمات التى تعّود أن يداعبها بها مرات لا تعد ولا تحصى طوال نصف القرن من الحياة معاً . فربما تمتم بكلمات مثل : «إننى أحبك – ما أجملك ! وإنى أحبك» . وبمجرد أن يتفوه بتلك الكلمات ، يرتد سريعاً إلى الجانب الآخر ، جانب النسيان التام .

**مرض الزهيمر مذل مهين :**

وأخيراً ، فقد كل اتصال وكل انضباط . لقد أصبح ڤيل عاجزاً تماماً عن التحكم فى نفسه ، غير مدرك لذلك كلية وبالرغم من أن وعية كان كاملاً ، إلا أنه ببساطة لم تكن لديه أية فكرة عما حدث . ولما كان البول يبلل ثيابه وأحيانا يكون البراز ، فإن تنظيفه وتغيير ملابسه مراراً كل يوم كان حتماً واجباً لإزالة المكروهات التى دنست البقية الضئيلة من الإنسانية التى مازالت متروكة فيه . قالت چانيت : «وإنه ذلك الرجل الذى كان دائماً فخوراً بمظهره وأناقته ، ودائماً مكرماً مبجلاً .. بل وتستطيع أن تقول عنه إنه كان مفرطاً فى الحشمة . ثم أن ترى ڤيل واقفاً عارياً بينما ينظفه المساعدون ، وهو لا يدرى على الإطلاق ماذا يحدث ....» . وهنا تنم عينيها عن بداية أول رقرقة للدموع ، ثم قالت : «لا أحسب إلا أنه مرض مذل مهين ! . ولو أنه استطاع بطريقة ما أن يعرف ماذا جرى له ، فإنه يقيناً كان سيرفض البقاء فى الحياة .. وإنه ليسرنى إنه لن يعرف . فهذا أمر يفوق احتمال أى إنسان » .

ومع ذلك ، فهى نفسها تحملته طواعية وعن رضى دون أن يسألها أحد أو يرتاب فى أن ما فعلته كان تلقائياً ولم يُطلب منها أداؤه . نادراً ما كانت ترى أبناءها ، وكثيراً ما كانت تجلس مع زوجات وأزواج المرضى تشاطرهم أحزانهم : «كنا نجلس ونبكى معاً . فلما قويت بعض الشيء ، حاولت أن أساعدهم . إنك عندما تصل إلى نتيجة ، تطرح عنك بعض المخاوف . وهذا ما علمت نفسى أن تفعله » وتعلمت چانيت أيضاً أن مرض الزهيمر ولو أنه مرض المرحلة الأخيرة من الحياة المتأخرة إلا أنه قد يصيب أيضا من هم أقل سناً . لقد كان بالمصحة رجلاً فى سنوات الأربعين من العمر عيناه فقط تتحركان .

قرب النهاية ، بدأ ڤيل يفقد وزنه سريعاً . فى أثناء السنة الأخيرة من عمره بدا وكأنه الجلد يتدلى من وجهة . واشترت له چانيت حذاء جديداً لأن قدمة انكمش

درجتين فى الطول وأصبح ذابلاً ضئيلاً - ومنظرة أكثر ، وأكثر تقدماً فى السن . هذا الرجل الذى كان يوماً قوى البنية ممتلئاً صحة وحيوية ، وكان فى شبابه يرتدى سترة تناسبه من المقاس الكبير ، ها هو ينحدر ليصير وزنه نحو ستين كيلو جرام .

فى خلال ذلك كله ، لم يتوقف مطلقاً عن المشى حتى فى تردده على المصحة فهو يمشى قلقاً ، ومتواصلاً بلا توقف كلما سمح له المشرفون على جناح العلاج بالمستشفى . وكما حاولت چانيت أن توسع خطواتها لتلحق سريعاً به ، لكنها لا تلبث أن يدركها الجهد والتعب إلى درجة الإنهيار ، بينما يظل هو متابعاً سيره . وحتى عندما كان مهزولاً شديد الضعف لا يكاد يقوى على الوقوف ، كان بطرقة ما يجد القدرة على المشى رائحاً غادياً ، أماماً وخلفاً ، وحول منطقة مكاتب الممرضات والمشرفين . وعندما يستهلك كل طاقته ويصبح منهكاً تماماً لا يقدر على مواصلة المشى ، يظل واقفاً مترنحاً (شديد التمايل والاهتزاز) إلى أن تأتى چانيت والممرضات فيجذبنه من كتفيه ويهدئنه ثم يجلسنه برفق فى الكرسى المتحرك ، وهو سريع التنفس شديد الضعف ، بادى العجز عن الانتقال أبعد من ذلك .

ما أن جلس ، حتى مال جسمة الذابل الهزيل جانباً ، لأن ڤيل لم تعد لديه القدرة على إمساك نفسه منتصباً فكان لابد وأن تربطة الممرضات بالمقعد مخافة أن ينكفئ نحو الأرض . وحتى وهو فى هذه الحالة ، لم تتوقف قدماه عن الحركة . وبالرغم من أنه ظل جالساً هناك ، مشدوداً إلى الكرسى بحزام يلف حول وسطه ويلهث من الإعياء نتيجة ما يبذل من جهد لا ينقطع ، فإنه لم يتوقف عن تحريك قدميه فى تقليد - مثير للمشاعر - لخطوات المشى السريع . يبدو وكأنه مجبر على فعل ذلك اقتفاء لأثر شىء ضاع منه إلى الأبد . أو ربما لم يكن ذلك صحيحاً . وربما كان فى داخله شىء ما يدرك القضاء المحتوم الذى ينتظر أولئك العابرين بالمرحلة الأخيرة من مرض الزهيمر ، لذا فهو يجرى فراراً منه . وأين المفر ؟

وفى الشهر الأخير من حياته ، كان لابد من ربط ڤيل إلى سريرة بالبيت لمنعه من النزول منه ليلاً ومواصلة المشى الذى لا يتوقف . وفى مساء التاسع والعشرين من يناير ١٩٩٠ ، فى العام السادس من مرضه ، زفز زفرة شديدة ، وقد تقطعت أنفاسه من أثر إحدى مشياته السريعة القوية ، وتعثر فى كرسية المتحرك فسقط منبطحاً على الأرض بلا نبض . وعندما جاء رجال الأسعاف بعد دقائق معدودات ، استخدموا جهاز إنعاش القلب والرئتين ( Cardiopulmonary resuscitation (CPR) ولكن بلا جدوى ، فأسرعوا به إلى المستشفى وكان مجاوراً للبيت . وهناك ، سجل طبيب الطوارئ رأيه القاطع بأن ڤيل مات بسبب تليف بطين القلب الذى أدى إلى توقفه .

استدعى الطبيب چانيت إليه – وتشاء الأقدار أنها لم تكن إلى جوار زوجها قبل عشر دقائق من بدء مسيرته الأخيرة نحو الوفاه .

قالت : «وعندما مات ، سُررت ، أعلم أن وقع هذه الكلمة قاس مفزع ، لكنى كنت حقاً سعيدة لأنه تحرر من إسار هذا المرض المُهين . كنت متأكدة من أنه لم يتألم مطلقاً ، كما كنـت أعرف أنـه كان يجهل تماماً ما يحدث له ، وهذا ما يسرنى ، وما أعتبره نعمة مباركة ، وهو الشيء الوحيد الذى صان جهدى طوال مشوارى معه على مدى تلك الشهور والأعوام . لكنه كان أمراً بشعاً مؤلماً مفزعاً أن أرى ذلك يحدث لإنسان أحببته كل الحب ... هل تعلم ؟ عندما ذهبت إلى المستشفى بعد وفاه ڤيل ، سألونى إذا ما كنت أرغب فى رؤية جسمانة . قلت : لا وكانت معى صديقة حميمة شديدة التمسك بإيمانها الكاثوليكى ، لم تفهم سبب رفضـى . لم أُرد أن يظل هذا الوجه الميت عالقاً بذاكرتى . ولكنى أكون أكثر وضوحاً : إن رغبتى هذه لم تكن من أجلى أنا . كانت من أجله هو » .

وهكذا ينتهى تدمير «ڤيل ويتنج» . حتى فى غمرة انحداره المأساوى المحزن نحو ضمور المخ ، أحجمت أسرته عن رؤية المشهد الختامى للتدمير المهلك الذى هو فى حد ذاته كثير جداً ما يسلم جسد ضحيته الذى لا يدرى شيئاً إلى نهايته المفجعة . وليس غريباً أو شائعاً أن ضحايا هذا المرض وهم فى المرحلة المتأخرة يفقدون كل اتصال بمن حولهم ، وأيضاً يصبحون بلا حراك . فإن أجسامهم تتخذ أشكالاً وأوضاعاً بشعة وهى متصلبة أو منحدرة نحو الموت .

ولكن قبل لحظة النهاية بفترة طويلة ، تصبح مشكلات المراقبة ساعة بساعة لا تطاق بالنسبة لمعظم الأسر . ومع سلوك لا يمكن التنبؤ به مسبقاً ، يجب منع المريض من التجوال والتنقل من مكان لآخر ومن تدمير نفسه وما حوله ، أو على الأقل التعامل معه جيداً فى تلك الظروف عندما لا يجدى التحذير ، وحين يشعر القائمون بالرعاية أنهم يراوغون وأن الضرر يتصاعد . كان من حسن الصواب أن يختار مؤلفو كتاب «يوم الـ ٣٦ ساعة» هذا العنوان . لأن استرخاء المراقب الحذر ولو للحظة قد يؤدى إلى إيذاء جسم المريض أو من حوله ، أو إلى إحداث نزاع من الجيران يفرض تصـرفاً معيناً لم تستعد له الأسرة بوقت كاف . إن الطاقات تتلاشى ، والجهود تتشتت ، والمريض يذبل ويتضاءل ، وحتى أشد الأزواج – أو الزوجات – صرامة وعزما سرعان ما يجد نفسه – أو تجد نفسها – مرهقاً خلاف ما يبدو عليه – أو عليها من ثبات وتحمل وجلد . وحتى أيضاً مظاهر الرعاية التمريضية العادية (الروتينية) تكاد تصبح مستحيلة وهى تتحدى أفضل الجهود التى يبذلها غالباً أكفأ المتخصصين والمتخصصات فى التمريض والخدمة الطبية .

ليس أمراً بسيطاً ولا عادياً وجود الإنسان الوديع الذى لديه الإحساس الكامل بالأمان فيعهد إليه بشخص كان يعنى الكثير فى حياته الخاصة . وبالرغم من أن هناك العديد من الأسباب التى تؤكد عدم الملاءمة والكفاية لتوفير هذا الصنف من الناس ، فإن أهم تلك الأسباب يأتى من الإحصاء الصارم . إن مرض الزهيمر يدهم أكثر من ١١٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية الذين فوق سن الخامسة والستين وإجمالى عدد الأمريكيين المصابين الآن بهذا المرض بما فيهم من هم تحت سن الخامسة والستين – يقدر بنحو ٤ ملايين ، وفى زيادة مستمرة ، وتشير تقديرات الاحتمالات المستقبلية إلى أنه بحلول ٢٠٣٠ فإن الأمريكيين الذين سيعيشون إلى ما بعد الخامسة والستين سيبلغ عددهم ٦٠ مليوناً أو أكثر . فإذا علمنا أن تكاليف علاج أمراض المخ والخلل العقلى بكل أنواعه تقدر حالياً بنحو ٤٠ مليار (ألف مليون) دولار سنوياً (ومعظم هذا المبلغ لعلاج مرضى الزهيمر) ، فإن حجم المشكلة سيصبح بالتأكيد فوق المذهل . فهل يكون مدعاة للعجب أن تحاول أسرة مهمومة قلقة تبذل أفضل ما فى وسعها ثم تجد نفسها فى أكثر الأحوال مرتبكة مسحوقة وفى حاجة إلى الإرشاد والعون ؟ ..

كلما مر المزيد من الزمن ، تحول المرضى تدريجياً إلى الخضوع التام . وأولئك الذين لا يقعون تحت وطأة إصابة عارضة مثل شلل المخ أو الجلطة القلبية يكون من المحتمل جداً انحدارهم تدريجياً إلى حالة سبق وصفها بأنها لا إنسانية يمكن أن نطلق عليها : حالة الخمول . وعندما تزول كل الوظائف العليا للمخ . وحتى قبل حدوث ذلك يفقد بعض المرضى القدرة على المضغ ، والمشى أو حتى البلع . وقد ينتج عن محاولات إطعامهم نوبات من السعال أو الاختناق تثير الرعب عند من يشهدها ، خاصة عندما يشعر أنه أرتكب خطأ . وتلك هى الفترة التى تواجه فيها أسر المرضى القرارات الصعبة : أهمها تغذية المريض بإدخال أنابيب مع قوة تحمل اتخاذ تدابير طبية لابد منها وقائياً للحماية من الإفرازات الطبيعية التى تهبط بالإنسان الواهن الهزيل إلى مرتبة أقل .

فإذا ما تقرر عدم استخدام أسلوب التغذية بالأنابيب ، فإن الموت جوعاً ربما يكون الاختيار الأرحم للذين فقدوا الوعى أو بمعنى آخر بلا إحساس بالحالة . قد يكون الموت جوعاً أفضل البدائل ، فالشلل وسوء التغذية الذى لا مفر منه غالباً هما من المفاجآت المتوقعة لمعظم المرضى الواهنين الذين يطعمون بدون استخدام الأنابيب وبسبب سلسال البول وقرينه ، وعدم الحركة ، وانخفاض مستويات بروتين الدم ، يستحيل تقريباً تجنب قروح الفراش التى قد تصبح ضخمة بشعة المنظر كما أنها قد تزداد عمقاً فتظهر العضل ، الوتر ، وحتى أيضاً العظم ، تغطيها طبقات من أقذار

كريهة من الأنسجة الميتة والصديد . عندما يحدث ذلك ، فإن الصدمة النفسية عند الأهل لا يخفف قليلاً من وقعها إلا معرفتهم بأن الضحية المسكين غير واع بذلك .

ويؤدى سلسال البول مع الإفرازات الأخرى ، والحاجة إلى استخدام القسطرة[1] إلى تلوث وتلف مجرى البول وبسبب فقدان القدرة على التعبير ، أو لابتلاع الإفرازات ، زيادة الميل إلى تكوين المخاط ، وقابلية الإصابة بالالتهاب الرئوى – وهنا مرة أخرى يتحتم اتخاذ قرارات علاجية صعبة لا تتعلق بالضمير الشخصى وحسب ، بل أيضاً بالمعتقدات الدينية ، والمعايير الاجتماعية ، الأخلاقيات الطبية . أحيانا ، تكون أفضل وسيلة هى التخلى عن اتخاذ تلك القرارات ويترك للعوامل الطبيعية الحاسمة أن تتبع طريقها . وما أن تبدأ خطواتها على هذا الطريق ، حتى يتسارع المسار عادة بشدة . والغالبية العظمى من الأشخاص الذين فى حالة خمول الزهيمر سوف يقضى على حياتهم نوع ما من العدوى ، أو التلوث الميكروبى ، سواء نشأ هذا فى مجرى البول ، فى الرئتين ، أو فى موضع متقذر كريه الرائحة ، أو من بكتيريا لصيقة مغمورة فى قروح الفراش . وفى حالة الحمى التى تأتى نتيجة لذلك ، وتسمى «تعفن الدم Septicemia » ، فإن البكتيريا تدفع هجماتها نحو مجرى الدم ، وسرعان ما تحدث صدمة ، واختلال خفقان (أو نبض) القلب (Cardiac arrhythmias) تخلط دموى شاذ ، فشل كبدى وكلوى ، فالموت .

وعلى امتداد الطريق ، يتعود أفراد الأسرة اكتساب خبرة تكافؤ الضدين : العجز المفجع ، والتحول الفجائى المستمر نحو الأسوأ . إنهم يخافون ما يرونه ، بقدر ما هو محتوم عليهم أن يروا .. إن الزوجة الحزينة أو الزوج أو الأبناء ، وهم يناضلون مع مشاكل الأسرة والحياة الخاصة بهم ، يجرفهم بحر من المشاعر العنيفة المتضاربة .

إن مرض الزهيمر هو أحد الفواجع الكبرى التى يبدو أنها فرضت لاختيار الروح الإنسانية . إن نبل الإخلاص والوفاء عند جانيت ليس حالة فريدة فى نوعه ، وربما تكون هى القاعدة السائدة مع اعتبار الأكثر أو الأقل فى القدرة والمقدار .

وفضلاً عن أن سلوك جانيت – وأمثالها – ليس أمراً غير عادى ، ففى الحق ، أنَ أولئك الذين يقدمون العون التخصصى والمهنى يتوقعون غالباً أن أُسر المرضى نادراً ما يداخلها الشك فى دورهم الذى يؤدونه فى عملية الرعاية والأشراف الطبى ولا ريب فى أن التكاليف ضخمة فإذا ما دخل فى الحساب جراح المشاعر وإضطراب العواطف والانفعالات ، وإهمال الأهداف الخاصة والمسئوليات الوظيفية والاجتماعية وإنحسار

(١) أنبوبة معدنية أو مطاطية يتم إدخالها فى مجرى البول لتفريغ المثانة .

العلاقات والروابط ، وبشكل أوضح ارتباك المصادر المالية عندئذ تكون المحصلة هائلة لا تحتمل . قليل جداً من المآسى تكاليفها أكبر . وعلى هذا النحو ، يبدو أن كثيراً من عائلات مرضى الزهيمر يحولون اتجاهاتهم فى الحياة النامية المتطورة الوضاءة بالآمال والغايات ، لأنهم محصورون محاصرون لعدد من السنوات مع العذاب الموجع فى طريق مسدود ، لا ينقذهم منه إلا موت الشخص الذى يحبون . وحتى من بعد ذلك ، فإن الذكريات المروّعة مهما توارت وغطاها ركاب الزمن ، لا تلبث إن تقاوم النسيان ، فتعود بعد وقت قصير ، إن حياة كانت المعيشة فها طيبة راضية ، وإن شعوراً مقتسماً من السعادة والعمل المثمر ، يستحيل استرجاعهما والنظر إليهما من خلال منظار لطخته أحداث السنوات القليلة الماضية . إن مسارات الحياة وأسلوب المعيشة فيها ، سوف تصبح – وإلى النهاية – أقل بريقاً وأقل طواعية وانقياد بالنسبة لأولئك الذين ظلوا على قيد الحياة .



obeikandl.com